

الأدب الرقمي.. عبقرية التغيرات والتشاؤم من المستقبل

ثورة غيرت الأدب والأدباء والقراء وفي طريقها لإزاحة المكتبات

لقد عرفت العقود الأخير، وخاصة العشرين سنة الماضية، ثورة كوبرنيكية كبرى وأساسية في عالم الرقمنة والثقافة التي باتت تتصل وتتأثر بها، إذ صارت الإنسانية غير قادرة على الانفصال والانفلات من الرقمي وتأثيراته على الواقع وعلى الأدب الذي تغيرت ملامحه ومازال يسير في اتجاه تغييرات أكبر وأسرع.



عزالدين بوركة
شاعر وباحث مغربي

الأدب الذي يتم إنتاجه عبر الكمبيوتر وعلى المستوى المعلوماتي، وأيضا هو أدب يتم إنتاجه على صفحات الويب، ما يجعلنا نصلح عليه بالأدب السبيري، وأيضا يتم إنتاجه ونشره على صفحات التطبيقات الرقمية المحملة على الهواتف والألواح الذكية، وبالتالي فهو الأدب الذي يتم تداوله عبر مختلف أشكال الوسائل الرقمية.

ويحدث كل هذا التغيير بالتوازي مع الثورة الرقمية بشكل واسع، إذ ما أن ولح العالم إلى العصر الرقمي حتى غيرت جل الأساليب والأدوات التواصلية جلدتها وأشكالها لتتماشى مع متطلبات العصر الجديد. إلا أن هذه الثورة الأدبية الرقمية لا تتعلق فقط بالكتب والنصوص التي تم إنتاجها رقميا، بل إن الكتب الورقية يتم إدراجها ضمن هذا الأدب عبر رقميتها أو تصويرها ضوئيا، ما يجعل العالم الرقمي عالما يستوعب كل الأشكال الأدبية باختلافها.

اليوم لا يمكننا أن نستغني الأدب الرقمي من مجال العلوم الإنسانية والإبصار الأكاديمية، فهذا الأدب هو ثمرة كل التغيرات التي أحدثتها الثقافة الرقمية على الأدب؛ حيث إنها جعلت عالم الأدب أكثر تشعبا وأكثر تداول، وصارت الوصول إلى النصوص أسرع وأكثر سهولة، بل إن النصوص لا تفتأ تفتح نوافذ على نصوص أخرى متعلقة بها في تشعب لانهائي، ومعه أصبح المجال الأدبي أكثر انفتاحا على مختلف الأجناس، ما جعل الحدود تختفي وتنهار كل الأسوار التي تحدها.

وقد أتاح هذا الأدب الهجين والجديد إنتاج أعمال تختلط فيها الموسيقى بالكتابة والفيديو والفن المصري. وهذا ما لم يكن ممكنا تخيله قبل عقود قليلة. كما جعل الأدب الإلكتروني الأدباء والقراء يغيرون نظرتهم إلى مفهوم النص الذي لم يعد متعلقا بالمتنوع فحسب، ومعه تغير رؤيتهم تجاه عملية الإنتاج الأدبي والتلقي، وهذا الأخير صار تفاعليا أكثر؛ ذلك أن النص الأدبي الرقمي لا يتوقف عند ذاته فهو متفرع ومركب ومفتوح. فحسب الباحث سيرج بوشاردون يجمع الأدب الرقمي "مختلف الإبداعات التي تثير أدبية وخصوصية السند الرقمي"، وبالتالي فهذا النوع الجديد من الأدب له خصوصيته التي تجعله مختلفا كلياً عن سابقه. إن نحن أمام ظاهرة أدبية جديدة تتماشى مع ما يعرفه العالم من تغيرات على جل الأصعدة، بل إننا على عتبات

ثورة كبيرة أحدثتها الإنترنت بتنا نلمسها في المستويات المتعددة، تخترق حياة الفرد اليومية عبر التطبيقات والأنظمة المستحدثة والتدوينات الصوتية والمرئية وعلى مواقع التواصل مثل يوتيوب وفيسبوك وتويتر وغوغل وغيرها. فقد غزت هذه التطبيقات والمواقع كل تفاصيل حياتنا اليومية، وصرنا غير قادرين على الابتعاد عنها، بل إننا نبدا يومنا وننتهيه فيها، مشكلة بذلك تفكيرنا وطرق عيشنا. ويقول الباحث ريمي ريفيل في كتابه الشهير "الثورة الرقمية.. ثورة ثقافية" (2018) عن هذه التطبيقات "بدأت بالفعل تغيير مثلا عادة تسوقنا (البيع عن بعد وتبادل الممتلكات) وعلاقاتنا بالإعلام (المواقع الإخبارية الإلكترونية)، وتؤثر في معرفتنا (الموسوعات والقواميس والمقالات لتوعية الآخرين، والتي يمكن الاطلاع عليها بشكل مباشر) وفي الصحة (الإطلاع على المواقع المتخصصة). كما أنها تغير حياتنا المهنية (التنظيم الجديد للعمل وغيره) وطرق الترفيه (تحميل الموسيقى والأفلام والفيديوهات، وتبث البث المباشر...".

الأدب الرقمي أصبح
عنصرًا هامًا في مجال
العلوم الإنسانية والأبحاث
الأكاديمية ويمكن اعتباره
ثمرة كل التغيرات

لقد غزت إذن هذه الثورة عالمنا، بل باتت هي عالمنا، لهذا ليس من الصدف أن تغزو عالم الأدب وتغير طرق تفكيرنا داخله وفيه. فقد خلخل الرقمي طرق الكتابة والقراءة والأشكال الإبداعية، ما يستدعي إعادة النظر في معارفنا ومفاهيمنا الثقافية والأدبية والفنية وحتى تفكيرنا.

عصر الأدب الرقمي

الأدب الرقمي أو ما يسمى أيضا بالأدب الإلكتروني أو الأدب المعلوماتي يتمثل في أشكال أدبية معاصرة مرتبطة بالتكنولوجيا والثقافة الرقمية. إنه



الأدب الرقمي عالم بلا حدود

ارتبط بشاشات الكمبيوترات حال غزوها البيوت، فكان من النعوت التي أطلقت على هذا الأدب "أدب الكمبيوتر". لكن سرعان ما سيتشعب هذا الأدب ويغدو أكثر تعقيدا ويصبح جزءا من خطوط الأنساب المعرفية، ومعه تولد نقد جيد موسوم بالرقمي، استدعى ضرورة مراجعة جل المفاهيم النقدية السائدة وتطوير آليات البحث والنقد تماشيا مع سرعة تفرع هذا الأدب "التكنولوجي" الذي ارتبطت به مسميات أدبية معاصرة، من شذرية وتوافقية وتفاعلية وصوتية ومرئية.

لقد بات النص متشعبا، وغدت القصاصد متحركة متداخلة مع فنون بصرية من برفورمانس وفن فيديو وغيرها. أو كما يقول ريمي ريفيل "النص الرقمي يغطي أولا قيمة كبرى لإعادة إنشاء النص: أصبحت الكثير من المعلومات ممكنة، مثل الكتابة والتحويل والقطع والحذف، ويمكن كذلك في أي وقت استكمال النص، وليس فقط خلال مرحلة الإعداد. فليس له في الحقيقة حجم أو كتلة، ولا يمكن لمسه فعلا. لا يتضمن أي أمر مادي للشخص الذي كتبه".

وبالتالي تغير مفهوم التلقي والقراءة، خاصة أننا نتنا نتحدث عن مفهوم "الفيديباك" (الاسترجاع) على مستوى التلقي؛ إذ يمكن للقارئ أن يعود إلى النص مرات ومرات من أجل التغذية الراجعة، أو ما يسمى ذلك بالفيديباك، أو من أجل المعالجة والتصحيح والتقييم والتتبع بغية الإضافة أو التنقيح أو التفاعل.

وكما يخبرنا فيليب بوطن "إذا ما أتاحت التفاعلية للقراء أن يتواصلوا فيما بينهم عبر عمل أدبي، فإنهم يقومون بذلك بحيث كلما تدخل أحدهم إلا وعدل نسق العلامات التي يقرأها الآخرون، ومن ثمرة تحصل عودة (تغذية راجعة) لنشاط القراء على العمل؛ قراءة شخص واحد تعدل العمل الذي سيتلقاه القراء المواليون". إذن لم يعد البرنامج نظاما ينسج فيه هذا القارئ بل صار أداة يستخدمها القارئ نفسه في بناء المعنى بواسطة القراءة.

إعادة التفكير

منذ بداية العقد الأخير من القرن الماضي نتنا نتحدث بشكل موسع عن الأدب الرقمي، هذا الأدب الذي

يعد هو عينه كما كان متعارفا عليه، وما يقودنا أيضا إلى التساؤل عما هو النص في ظل كل هذا التغيير؟ وعن معنى القراءة في العصر الرقمي؟

القراءة المتفاعلة

يخبرنا المفكر فيليب بوطن في مؤلفه (الرقمي) الشهير "ما هو الأدب الرقمي؟"، بأن الأدب الرقمي ولد في فلك السبيري، وأثار عددا من الأحكام المسبقة تتبع من التخيل التكنولوجي المتشائم من المستقبل لدى البعض، وتتحدر لدى البعض الآخر من تفسير عبقرية التغيرات العميقة التي يلحقها هذا الأدب بالكتابة والقراءة والنص، وهذا الأخير بات أكثر تفاعلا وترباطا.

نتحدث اليوم عن نص مترابط ونص تفاعلي، نص يتضمن نصوصا أخرى ووسائل أدبية أخرى بشكل أكثر تفرعا وتعقدا، نص لا يتوقف عند الهوامش المرفقة به، بل يحلنا ويأخذنا إلى وسائط مكتوبة ومسموعة ومرئية، لم يكن من السهل بلوغها مع "الأدب الورقي"، وذلك عبر الروابط التي يخلقها النص المتشعب ويضمونها.

عصر الإنسان المغارق (المتجاوز)، نحو ما بعد الإنسان؛ هذا الإنسان الذي بات أكثر ارتباطا بكل ما هو سبيري، رقمي، ما يستلزم معه أن يتغير حتى الأدب جلده وشكله وأسندته من أجل مواكبة كل هذا التطور المتسارع.

وكما يخبرنا الباحث الإيطالي فيتالي روسالتي مارسيلو فإن العصر الرقمي "يغير -بشكل عميق- ممارساتنا ومعانيها"، وهو ما يقودنا إلى ثقافة رقمية خالصة، ويضيف في كتابه "هل من وجود للأدب الرقمي؟" (2015) أن الكتب بمختلف أشكالها باتت منتسبة إلى المجتمع المعاصر: المجتمع الرقمي.

ونجد أنفسنا اليوم إزاء رهانات متنوعة؛ إذ صار الأدب في العصر الرقمي موضع أسئلة كثيرة، أسئلة مرتبطة بالعلاقة بين التخيل والواقعي والافتراضي، ومرتبطة أيضا بالحدود بين الأدب والواقع، وبين الأدب وتعدد الأساليب والأسناد المتاحة له وتداخلها، والعلاقة التي تربط بين صاحب النص والمتلقي الذي بات طرفا وفاعلا داخل عملية الإبداع. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن شخصية ووضع المؤلف في ظل كل هذا التغيير؛ المؤلف الذي لم

الرواية الفيسبوكية تحول الكاتب إلى إنسان عادي

عربية نُشرت فصولها الـ35 على موقع فيسبوك، وسط تفاعل القراء المباشر مع أحداث الرواية، بجائزة الإبداع الأدبي العربي. وفي تقييمه للتجربة العربية في هذا النوع الجديد من الأدب يقول إستيتو "حاول الأدب الرقمي العربي أن يستثمر الخصائص التي يوفرها الكمبيوتر من صورة وصوت وغيرها، ثم انتقل إلى استثمار وسائل التواصل الاجتماعي، مع اختلاف في قوة هذا الاستثمار بين كاتب وآخر".

التلاعب بالأسلوب ونسيان
الحبكة ينفران القراء،
فالتشويق والإثارة وإحداث
المفاجأة مع نهاية كل
فصل ضرورية

ويضيف "من خلال ملاحظتي البسيطة لنقد التجارب الرقمية أرى أن قلة قليلة من النقاد تطلع فعلا على التجارب وتمحصها بدقة قبل أن تقدم إلى الجمهور رؤيتها بشأن هذه التجارب، بل هناك من يهاجمها أحيانا وهو لا يضبط حتى عنوان الرواية، فما بالك بمحتواها".

في الكتابة، والتفاعل بين عناصر النص، يقول الروائي المغربي "أحاول دائما أن أوضح وأفصل بين الرواية الرقمية التفاعلية والرواية الفيسبوكية، فالرواية الفيسبوكية هي رواية تكتب فصولها مباشرة على موقع فيسبوك، ويتفاعل معها القراء، وقد يشتركون في تغيير أحداثها أيضا أحيانا".

ويضيف "لقد اعتمدت في رواية 'على بعد ملتمتر واحد فقط' على تقنية استطلاعات الرأي لاستشارة القراء في حدثين مفصلين من الرواية حيث تركت لهم حرية اتخاذ القرار في مصير البطل، وكانت نتيجة التصويت هي الحكم".

إضافة إلى ذلك يشير إلى أن فيسبوك يوفر خاصية نشر الفيديو والصور، وقد اعتمدهما لوصف أماكن الرواية والأغاني التي يستمع إليها البطل مثلا، والأفلام التي تحدث عنها. لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تم نشر "برومو" للرواية وأغنية خاصة بها، وكل هذا على موقع فيسبوك بفضل التفاعلية الدائمة التي يوفرها. ويقر بأن تفاعلية الرواية وصلت إلى حد أن العنوان الثانوي للرواية كان من اقتراح أحد القراء، وهو "زهريزا" (دمج كلمتي الزهرة والموناليزا). وقد فازت روايته الفيسبوكية "على بعد ملتمتر واحد فقط"، وهي أول رواية

نقرأ أسلوبا طبيعياً تأخذنا الدهشة والنشوة، لأننا نتوقع أن نجد كاتباً فإذا بنا نكتشف إنساناً". لا يتشدد إستيتو في اعتبار الحكمة والشخصيات في الرواية أهم من الأسلوب. لكن غيابهما، في رأيه، هو إقبال للرواية الفيسبوكية بمعناها التفاعلية الذي يقتضي وجود قراء كثر ومتفاعلين على مدار الساعة.

وعن تجربته الخاصة في هذا الصدد، وأبرز التقنيات التي اعتمدها

ويلفت الروائي المغربي إلى أن الرواية الفيسبوكية تفرض -بكل ما لها وما عليها- الشروط التي ذكرها، متابعا "إما أن يخضع لها الكاتب أو فليكتب رواية عادية إن كان يرى أن هذا يؤثر على عطائه الأدبي". ويواصل "عندما أقول هذا فانا لا أقصد أن تكون الرواية مبتذلة أو سطحية، بل أؤكد على تفضيل الأسلوب السهل الممتنع، ولعلي استحضرت هنا ما قاله الروائي الفرنسي باسكال: عندما

وغيرها - جسرا للوصول إلى القراء، ولكن إستيتو يرى أنه إذا كان الكثيرون يعتقدون أن الأدب الرقمي هو انسلاخ تام عن الأدب الكلاسيكي فإن الحقيقة هي أنه تكملة له، في سنة تطوّر طبيعية لا يحيد عنها مخلوق أو مجال فني. ويضيف "أظن أن الأدب، مثل باقي الفنون، يعتبر انعكاسا للتطور المجتمعي بشئ أشكاله، لذا كان من الطبيعي أن يتفاعل مع موجة ظهور الإنترنت أولا، ثم مواقع التواصل الاجتماعي ثانيا".

ويشدد الروائي على أن الأدب الرقمي يتعين عليه أن يجعل من التطور التكنولوجي خادما للإبداع، وليس مجرد جزء منه بحيث لا يضيف له شيئا، كي نقول في الأخير إننا أنتجنا "أدبا رقميا". وحول ما يميز الأدب الرقمي التفاعلي المستحدث عن الأعمال الكلاسيكية والشروط التي يتأثر ضمنها هذا النمط يقول إستيتو "أدبا تختلف كتابة رواية فيسبوكية عن كتابة رواية كلاسيكية، فإن القارئ 'الفيسبوكي' قارئ ملول، وإذا سقط الكاتب في الإطناب فسيسخر قراء كثيرين، ذلك أن التلاعب بالأسلوب ونسيان الحكمة والشخصيات سيكونان على حساب المتابعة. لهذا فعناصر التشويق والإثارة وإحداث المفاجأة مع نهاية كل فصل مطلوبة بشدة".



عبدالواحد إستيتو: أسلوب الرواية التفاعلية السهل الممتنع